العنوان: احمد بن قاسم الفقاي الحجري آخر موريسكي يؤلف بالعربية ويدافع جهرة عن الإسلام

المصدر: الأكاديمية - المغرب

المؤلف الرئيسي: ابن منصور، عبدالوهاب

المجلد/العدد: ع 12

محكمة: نعم

التاريخ الميلادي: 1995

الصفحات: 15 - 36

رقم MD: 176084

نوع المحتوى: بحوث ومقالات

قواعد المعلومات: ACI, AraBase, HumanIndex, IslamicInfo

مواضيع: محاكم التفتيش، الحجري ، احمد بن قاسم الفقاي، سقوط الاندلس، الموريسكيون، المدجنون، اللغة القشتالية، ازمور، السفياني ، محمد بن ابراهيم، مسلمو الاندلس، المهاجرون الاندلسيون، فرنسا، مؤلفات احمد الفقاي الحجري، العلماء المسلمون، العلماء الاندلسيون

رابط: http://search.mandumah.com/Record/176084

أحمد بن قاسم الفُقّايْ الحجري
آخر موريسكي يؤلف بالعربية
ويدافع جَهْرَةً عن الإسلام

عبد الوهاب بنمنصور

عندما تغلب الملكان الكاثوليكيان فرناندو وإيزابيلا على ملك بني الأحمر واستوليا على غرناطة سنة 1492م /897 هـ فرضا على المسلمين المغلوبين أحكاماً قاسية نَاكِثَيْن العهود التي قطعاها على نفسيهما ساعة التسليم وكتبا بها وثيقة أمضياها مَع أبي عبد الله ابن الأحمر ، آخر ملوك الأسرة النصرية دفين فاس، فبدأ الوجود الإسلامي في الأندلس تنحسر مظاهره وتتقلص معالمه تدريجياً بهجرة عدد كبير من المسلمين الأندلسيين إلى البلاد الإسلامية شرقاً وغرباً ، واضطرار من بقي منهم بالأندلس إلى التظاهر بالنصرانية والاندماج في المجتمع المسيحي خوفاً من الاضطهاد الفظيع المنصب عليهم والذي كان يصل إلى الحرق والقتل كما يعرفه كل من أَلَمَّ بشيء من تاريخ محاكم التحقيق L'INQUISITION بعد ذلك كان يظهر طيلة القرن الذي تلا سقوط غرناطة بعض النُّبغاء من مسلمي الأندلس الذين بقوا بها تحت الحكم المسيحي يُخْفون إسلامهم حتى تسنح لهم فرصة التظاهر به عندما يستطيعون الهرب إلي أرض الإسلام، وهؤلاء المسلمون هم المعروفون في الكتب الإسلامية بالمدجَّنين ، وفي الكتب الأوروبية الموريسكوس.

ولا شك في أن من آخر هؤلاء النبغاء ، إن لم يكن آخرَهم ، أحمد بن قاسم الفُقَّاي الذي نجعله موضوع هذا الحديث.

فمن يكون أحمد الفُقَّايْ ؟ هو أحمد بن قاسم بن أحمد بن الفقيه قاسم ابن الشيخ الحجري الأندلسي ، يلقبه المغاربة بالشهاب ، والإسبانيون بالبيخيرانو BEJERANO، والإسم الذي اشتهر به هو اسم أسرة أندلسية ما زالت بقاياها موجودة بتطوان يعرف أبناؤها بأولاد الفُقَّايْ ، وقد أخذ الإسم صيغة بربرية كما أخذتها أسماء عربية عديدة في جهات كثيرة من المغرب كأنجار (النجار) وأصراف (الصراف) وأطبيب (الطبيب) وأحفير (الحفير) ، فقيل فيه أفُقّايْ وأفوقَّايْ ، وكان هو يوقع رسائله هكذا : أحمد بن قاسم فُقَّيْ الأندلسي تارة أو يذكر قعدودَه تارة أخرى ، ولا عبرة بزعم من زعم أن الفُقّايْ تحريف بالإسبانية لكنية أبي القاسم التي كان يُكَنَّى بها !

ولد عام 977هـ /1570م حسبما يُفهم من جملة كتبها بخط يده في حاشية كتابه "ناصر الدين"(1) بقرية قريبة من غرناطة تسمى الحجر الأحمر ، ونشأ يُبطِن الإسلام ويظهر النصرانية ، وعكف في صغره على دراسة اللغة القشتالية وآدابها حتى أتقنها إتقان الماهرين من أهلها وصار من يسمعه يتكلم بها لا يشك في أنه قشتالي أصيل ، أما أحكام الشريعة الإسلامية وقواعد اللغة العربية فإنه تعلمها من أهل بيته، ولكنه لم يكن يجرؤ على إظهار معرفته بها خوفاً على نفسه من التلف في ذلك الزمن العصيب .

وعلى ذلك افتضح أمره لما اكتشف أُسقف غرناطة جان مينينديث دي سالفاتييرا JEAN MENENDEZ DE SALPATIERRA أنه يُحسن العربية، وسبب ذلك أنه كان يحضر مجالس تعقد تحت رياسة الأسقف المذكور لترجمة نصوص عربية وجدوها يوم 19 ربيع الثاني عام 996هـ /18 مارس 1588م في جدار صومعة الجامع الكبير التي أمر الأسقف بهدمها، وكان يحضر تلك المجالس – مجالس الترجمة – تراجمة من المدجنين ، فكان إذا أُشْكِل عليهم لفظ دلّهم الفُقّايْ على معناه، والمرْء مخبوءٌ تحت لسانه ، فعرف الأسقف أنه يجيد العربية وطمأنه للحاجة إليه، وعرّف به الأسقف دون بيدرو كاسترو DON PEDRO CASTRO الذي خلفه لما مات وبقي يعقد مجالس الترجمة بعد وفاته، ولما سُئل الفُقّايْ عن العربية كيف تعلمها؟ لم يسعه إلاّ أن يعترف بأن أصله من قرية الحجر الأحمر التي كان أهلها حتى ذلك الوقت يتكلمون العربية ، ويدَّعي –كذبا– أنه بعد ما أتقن اللغة القشتالية وآدابها ذهب إلى مدريد حيثُ تعلم فيها قواعد اللغة العربية على يد طبيب أندلسي الأصل، من أهل مدينة بلنسية التي كان يباح فيها تعلم العربية لغير المسلمين ، ولما طلب منه أن يدلّهم على الطبيب المذكور زعم أنه

توفي قبل سنتين أو ثلاث ، وما زال أمره يعظم عندهم والشعور بحاجتهم إليه يزداد حتى أعطوه رخصة بالترجمة من القشتالية إلى العربية ومن العربية إلى القشتالية .

وكان الفُقّاي يمنِّي نفسه منذ صغره بالهجرة من الأندلس والاستقرار ببلد إسلامي فراراً من الاضطهاد الذي صبَّ على المسلمين بعد القضاء على الحكم الإسلامي ، وبقي يعمل الحيلة لتحقيق أمنيته حتى استطاع في ربيع سنة 1599م/1007هـ أن يسافر متنكراً مع صاحب له على ظهر سفينة محملة بالقمح كانت متوجهة من ميناء سانتا مرية SANTA MARIA [2] إلى ميناء البريجة المغربي (الجديدة اليوم) الذي كان يرزح يومئذ تحت نير الاحتلال البرتغالي ، ويصف المترجم في آخر تعريبه لكتاب « العز والرفعة والمنافع » رحيله من الساحل الأندلسي مختلطاً بالنصارى المسافرين الذين لم يشك واحد منهم في أنه واحد منهم فيقول : «ولما أن جئت إلى البلاد التي هي على حاشية البحر حيث هو الحرس الشديد وجلستُ بينهم فلم يشكُّوا فيَّ بما رأوا من الكلام والحال والكتابة وجئتُ من بينهم لبلاد المسلمين»، ويؤكد أن ذلك لم يكن ليتيسَّر له لولا معرفته باللغة القشتالية واطلاعه على ما في كتب النصارى ، تلك المعرفة التي كان يبتغي بها القرب من الله ، والتي فتحت له « بيبان الملوك المسدودة عن كثير من الناس» [3] .

ولما نزل بالبريجة استدعاه قائد حاميتها البرتغالي، وهو يسميه القبطان، وسأله عما جاء به وصاحبه إليها ؟ فأجاب بأن شَنَئاناً وقع بينهم وبين ناس من بلدهم هو الذي دفع بهم إلى الالتجاء إلى حَرَمها، فرحب به القبطان ولم يَرْتَبْ في صدق ما ذكره ، وفي أنه وصاحبه نصرانيان أصيلان، وقوَّى الثقة به أنه كان يتكلم البرتغالية بطلاقة، وأنه اشترى حصاناً انتظم به في سلك الفرسان البرتغاليين المحتلين .

وأقام الفُقّايْ بالبريجة يتحيَّن فرصة للهرب مع صاحبه إلى الداخل حيث لا سلطة لغير المسلمين ، حتى سنحت له في خبر طويل ، ففرَّ إلى مدينة أزمور التي تبعد 20 كلم شمالاً عن ميناء البريجة (الجديدة)، وعانيا في الطريق متاعب ومشاقَّ من الجوع والعطش وخوف لحاق العدوّ بهما وإرجاعهما إلى البريجة، وبقيا على ذلك أياماً إلى أن بلغا مأمنهما بأزمور، ولما سمع قائدها محمد بن إبراهيم السفياني بمقدمهما احتفى بهما ، ولكنه أخضعهما مع ذلك لتحقيق دقيق

مخافة أن يكونا جاسوسين متنكرين ، فسألهما عن أمور تتعلق بأحكام الشريعة الإسلامية أجابه الفُقَّاي عنها إجابة العارف المتمكّن، ومن جملة الأسئلة التي طرحها القائد عليه سؤاله عن العربية هل يحسن كتابتها ؟ فكتب فيها ما ألهمه الله في تلك الساعة، فلما قبضها القائد السفياني احتفظ بها ، ويظنُّ الفُقَّايْ أن القائد بعث بها مع تقرير عن خبر هربه وصاحبه إلى السلطان أحمد المنصور الذهبي ، وأن السلطان أمره بعد ذلك باصطحابهما عندما يجيء مع وفد أزمُّور لشهود حفلات العيد معه بمراكش.

وبالفعل ذهب الفُقَّايْ وصاحبه مع قائد أزمور ووفدها عندما حل موعدُ السفر، ولما وصلوا وادي نسيفة (تانسيفت) وجدوا السلطان أقام به مخيّماً لاستقبال الوفود الآتية إليه من مختلف جهات المملكة لتهنئته بالعيد ، وذلك بسبب الوباء الذي انتشر في مراكش وفتك بسكانها، وكان العيد عيد أضحى ، (الأحد 10 ذي الحجة عام 1007هـ/4 يوليوز سنة 1599م)، ويذكر الفُقّايْ أن الناس كانوا عندما يرونه في الطريق والمخيم يعجبون من زيِّه ولهجته ويحسبونه نصرانياً ويطلبون منه النطق بكلمة الشهادة ، أما السلطان أحمد المنصور السعدي فإنه استحسنه لما رآه واستبقاه بحضرته ، ولما قوّض خيامه المضروبة بوادي نسيفة وعاد إلى مراكش بعد حفلات العيد خصّص له استقبالاً حافلاً يوم الديوان[4] حضره رجال الدولة والأعيان والمهاجرون الأندلسيون الذين كان يستخدم منهم أعداداً وفيرة في قصره وجيشه ، ويصف الفُقَّاي في كتابه «ناصر الدين» مقابلة السلطان له ، فيذكر أنه أعدّ خطبة بليغة انتقى ألفاظها وألقاها بصوت جهير خشعت لسماعه أصوات الحاضرين، وظهر الفرح على وجه السلطان وعَجِبَ أن يكون بقِي في الأندلس من يتكلم العربية بطلاقة العلماء مثلما تكلم ، كما ظهر الفرح على وجوه المهاجرين الأندلسيين[5]، ومن ذلك اليوم صار الفُقّايْ من سكان حاضرة مراكش، يعمل فيها بديوان السلطان ، ويخالط من يجتمع ببابه من العلماء والأدباء والفقهاء، ويتعلم من العلوم والفنون ما لم يكن من الممكن أن يتعلمه بإسبانيا ، ومن أشهر شيوخه وأصدقائه بها أحمد بن قاسم ابن معيوب الفاسي، وأحمد بابا بن أحمد التنبكتي السوداني، وأحمد بن أحمد التواتي، والقاضي عيسى بن عبد الرحمن السكتاني، ومحمد بن عبد الله الرجراجي، ومحمد بن يوسف الترغي.

ولما توفيّ السلطان أحمد المنصور السعدي بفاس عام 1012 هـ خدم

الفُقاي ابنه السلطان زيدان ، وهو يذكر بافتخار أنه كان ترجمانه وكاتب سره باللسان العجمي[6]، ويشير في مناسبات كثيرة إلى ما عرّب له من الكتب والرسائل، فلما توفي عام 1037 خدم ابنيه المتملكين من بعده : السلطان عبد الملك بن زيدان المقتول عام 1040 ، ثم السلطان الوليد بن زيدان المقتول عام 1045.

كان أحمد الفقّاي نابغة من نبغاء المغرب الأعلام في القرن الحادي عشر الهجري، وهو يختلف عن أكثرهم تكويناً وتفكيراً واهتماماً، ويرجع السبب في ذلك إلى ولادته ونشأته وتعلمه بإسبانيا، وإتقانه اللغة القشتالية التي مكنته من الاطلاع على ما عند الأوروبيين، وصقلت الكتب التي قرأها بها ذهنه، كما أكسبه احتكاكه بالمعلمين الذين قرأ عليهم، والطلبة الذين تعلم معهم، والرهبان العلماء الذين اجتمع بهم أو ناظرهم ، أسلوباً متميزاً في الكتابة يحسُّ به قارىء الكتب والرسائل التي ألفها أو عربها ، وطريقةً في التحليل والحكم تختلف عن طريقة معاصريه من علماء المسلمين ، ولو لا ذلك لوجدناه يجترُّ مثلهم مباحث الأقدمين وينهج مناهجهم ، وهو لا يشبه الكثير منهم إلاّ في الاعتقاد بفائدة الرُّقَى والتمائم وخطوط الجداول وأسرار الأسماء والحروف، ولعل هذا الاعتقاد إنما لصق بعقله بعد انتقاله إلى المغرب واستقراره بمدينة مراكش التي اشتهرت هي وما خلفها وحولها من وهود ونجود بوجود ناس كثيرين يشتغلون بذلك ويرتزقون منه ويحظون لدى المغفلين من العامة بمهابة واحترام بسببه [7].

ويظهر من كتابات الفُقَّايْ غيرته الشديدة على الإسلام الذي يدين لأبويه وأسرته بتمكُّنه من قلبه ، إذ هم الذين حبّبوه إليه سرّاً وعلموه قواعده وأحكامه في وقت كان التدين بالنصرانية في إسبانيا الكاثوليكية ضروريا لمن أراد أن يقي نفسه الاضطهاد والتعذيب إلى حد الحرق والقتل، كما تظهر في كتاباته غيرته الشديدة على المسلمين ودعوتهم إلى الأخذ بالأسباب المادية التي أخذ بها الأوروبيون لتكون كلمتهم مسموعة وجانبهم عزيزاً ، وهو في غيرته على الإسلام ونصحه للمسلمين ينطلق من إحساس شمولي لا يتقيّد بجهة من الجهات ، ولا فئة من الفئات ، كما يتجلى ذلك من الدعوات الحارة التي دعا بها في آخر كتاب «العز والرفعة والمنافع» للسلطان مراد العثماني وواليه على تونس الداي مراد[8].

وعلى معرفة الفُقّايْ للّغة العربية واطلاعه على معظم قواميسها بالأندلس قبل الهجرة وبالمغرب بعدها، ومحاولته تقليد بلغاء الكُتّاب في الكتابة المسجعة

واستعمال المُحَسِّنات البديعية وتضمين إنشائه آيات من القرآن وجملاً من الحديث النبوي وقبسات من الشعر والحكم والأمثال ، فإن قارىء كتاباته – خاصة إذا كان يُحسن إحدى اللغات اللاّتينية– يحس بتأثير الأسلوب الكتابي الأوروبي على قلمه، نتيجة ما تعلم وطالع من كتب غير عربية ، يشعر بذلك في تراكيب الجمل واستعمال كلمات أعجمية ، إما إسبانية أو برتغالية وإما عامية محلية، وقَلْب حروف يصعب النطق بها على غير العرب كحروف الحَلْق ، وكتابة أعلام جغرافية حسب النطق الإسباني بها ،وعدم التقيُّد بقواعد الرسم والنحو والصرف.

ومن أشهر الأعمال التي قام بها وسيّرت له ذكراً في الشرق والغرب وكشفت جوانب كثيرة من حياته وثقافته ومزاجه ، ذهابه إلى فرنسا للدفاع لدى وُلاتها وأمام قضاتها عن جماعة من مسلمي الأندلس المطرودين منها نهبهم البحّارة الفرنسيون خلال نقلهم في سفُنهم إلى السواحل المغربية ، وتعريجهُ على هولاندة في طريق رجوعه إلى المغرب ، وما جرى بينه وبين علماء وأعيان ورجال دين فرنسيين وهولانديين من مُناظرات ومُحاورات حول مسائل تتعلق بالدّيانتيْن اليهودية والنصرانية أو حول شبهات ومفاهيم خاطئة تتعلق بالديانة الإسلامية ، وقصة ذلك أنه بعد ما أصدر ملك إسبانيا فليب الثالث سنة 1609 م /1018هـ قراره بطرد بقايا المسلمين من الأندلس شاركت سفن فرنسية في ترحيل المطرودين بالأجْر إلى سواحل البلدان الإسلامية، وخلال عملية الترحيل كان البحارة الفرنسيون ينهبون المسلمين المطرودين ويسلبونهم ما حملوا معهم من مال ومتاع ، ويُنزلونهم إلى البرّ حفاة عراة في حالة تدمي القلوب وتفتّتُ الأكباد، وأُنزلت جماعات منهم في سواحل المغرب أحسن إليهم السكان[9] قبل أن يواصلوا مسيرهم إلى مراكش عاصمة الملوك السعديين حيث وصفوا لولاتها وسكانها ما لقوا من نُصب وعذاب بالأندلس قبل الطرد ، وعلى متون السفن الفرنسية التي أقلّتهم إلى المغرب بعده ، وينقل الفُقّايْ أن عملية الترحيل استمرت إلى عام 1020هـ وأن عدد المطرودين تجاوز ثمانمائة ألف .

واتفق في ذلك الوقت أن أحد مسلمي الأندلس المطرودين كان يقيم بفرنسا، فلما بلغه خبر ما تعرض له إخوانه الواصلون إلى مراكش من نهب وابتزاز كتب إليهم يستقدم خمسة منهم إلى فرنسا يحملون وكالةً من سائرهم ليدافعوا عن حقوقهم أمام محاكمها ، ويقترح عليهم أن يصحبهم واحد من مواطنيهم سبقهم إلى الهجرة إلى المغرب واستقر فيه قبل سنين ، فاستجابوا إلى طلبه ، واقترحوا

على أحمد الفُقّاي أن يسافر مع الخمسة إلى فرنسا ، فقبل اقتراحهم ، وسافروا جميعاً من ميناء آسفي بعد ما زوّدهم السلطان زيدان السعدي برسائل توصية إلى ملك فرنسا وولاتها وقضاة محاكمها.

ولا نعرف تاريخ سفرهم بالضبط ، ولكن الفُقّايْ يذكر في كتابه «ناصر الدين» أنه كان بعد 12 سنة من هجرته إلى المغرب ، وهو ما يوافق سنة 1611 الميلادية والعام 1020 الهجري، أيْ بعد صدرو قرار الطرد بسنتين وخلال عمليات الترحيل التي استمرت إلى سنة 1612م [10].

ويذكر الفُقَّايْ أن مسيرهم في البحر من مرسى آسفي إلى فرنسا طال ثلاثين يوما ، وأنهم اتجهوا شمالاً تاركين سواحل المغرب والأندلس عن أيْمانهم حتى رستْ سفينتُهم بميناء لوهافر [11] الذي يسمّيه هبْرْدي غرسي HAPRE DE GRACE ويشرح معنى الإسم فيقول إن معناه مرسى البركة ، وبعد أن قضواْ ليلة في الميناء على ظهر السفينة نزلوا إلى البرّ ، ومن هناك ذهبوا إلى مدينة روان ROUEN التي اضطر فيها إلى لبْس الملابس الفرنجية، كما لقي فيها تاجراً فرنسياً يتكلم العربية بطلاقة لطول إقامته بمدينة مراكش التي عرفه فيها ، ومنها سافروا إلى باريس التي بهره عمرانها ووصف دورَ أعيانها ، وذكر أن النصارى يقولون إنها والقُسطنْطينية ولشبونة مدن العالم الثلاث الكبرى ، ولكنه عاب عليهم إغفالهم القاهرة التي تشكّك في أن تكون باريس أكبر منها.

وفي باريس قدم الفُقّاي رسالة سلطان المغرب إلى ديوان ملك فرنسا الذي كان وصلتْه أيضاً رسالة من السلطان العثماني يوصي فيها خيراً بالأندلسيين اللاّجئين إلى بلده أو المشتكين من ظلم رعيته أمام محاكمه ، ولم تكن مهمَّتُه بالسهلة ، ولا بالمريحة ، فقد اقتضتْ منه أن يتنقّل طيلة ثلاث سنوات بين شمال فرنسا وجنوبها الغربي، وأن يُقيم في مدينة بورُدو سنة كاملة يُدافع أمام قُضاتها عن بلدييِّه المنهوبين ، ولكنه لم يُحصّل هنا وهناك إلاّ شيئاً قليلاً (مما كان قد أخذ على وجه النهب والتعدية للأندلس الذين وكّلوني على مسائلهم ، فاستنفعنا من شيء قدر ما يكفينا مما نحتاج إليه من النفقة واللباس ، وما نحتاج للطريق حتى نبلغ إن شاء الله لبلادنا) [12].

ومن أطْرف ما وقع له بمدينة بوردو وقوعه في غرام شابة جميلة عندما كان يقيم ضيفاً بدار (صاحب الطابع) بضواحيها، وأتركه يحكي قصة هذا الغرام بلفظه منقولة باقتضاب من كتابه (ناصر الدين، على القوم الكافرين) قال :

« ... وكانت في تلك الدار بنت من قرابته (قرابة صاحب الطابع) ذات مال عظيم مما ترك لها والديها (كذا)، وهي من أربع وعشرين سنة ، ولها من الحسن والجمال كثير، وطلبَها للزواج كثيرٌ من أكابر أهل بلادهم ولم ترض بأحد منهم ... ثم جاءت البنت وقالت لي أن أصف لها حال النساء اللاتي هن في غاية الحسن والملاحة عندنا ، فذكرتُ لها ما تيسر، وكانت البنتُ تُزيّن نفسها وتسألني هل في بلادنا من تلبس لباس الحرير مثلها؟ ثم قالت لي : أعلمك تقرأ بالفرنج وصرت تلميذاً لها! وأخذتْ في إكرام أصحابي ... كثرت المحبة بيننا حتى ابتُليتُ بمحبتها بلية عظيمة، وقلتُ قبل ذلك كنت في خصام مع النصارى على المال، وفي الجهاد على الدين ، الآن هو الخصام مع النفس والشيطان ... وكنتُ أخرج إلى بين الأشجار وأدعو الله تعالى أن يثبّتني. فمشى إبليسُ إلى صاحب من أصحابي وكان أكبرَهم سنّاً ووسوسة، واتفق معه أن يكلمني في شأن البنت، وكنت أخفي ما أصابني من الهمّ بسبب البنت عن أصحابي ، ليلاّ يظهر لهم ضعف مني ، إذ كنت أقوّيهم أن يغلبوا نفوسهم عن النساء المحرمات والميل لهن، فجاءني صاحبي على وجه السر والنصح وقال لي : هذه البنت ما يخفى حالها، وهي تعمل الخير الكثير معنا بسبب محبّتها لك، إذ هي ظاهرة ليست بخافية، وأنت تعرف العادة الجارية في هذه البلاد، أن الرجل يمدّ يده للبنات ويلعبها وليس بعيب عند أحد من هذا الناس ، وهي تقف أمامك مراراً قريباً منك تنتظر أن تلاعبها وأنت لا تفرحها ولا تشرحها، قلتُ في نفسي : هذا أقوى من الشيطان، وقلت له يا صاحبي : هذا عندنا ممنوع في ديننا، وجسدها ليس حلالاً لي، قال : لا أقول لك إلاّ أن تلاعبها فقط ! قلتُ له قال صاحب البردة :

فلا ترمْ بالمعاصي كسر شهوتها إن الطعام يُقوي شهوة النهم

فلم ينفع مع صاحبي شيء من كل ما قلت، لأنه جاء من ورائي والبنتُ واقفة تتكلم معي، ودحاني (دفعني) إليها، وحين ذهب خاصمته على حُمقه.

وسألتني هل عندي امرأةٌ في بلادي ؟ فقلتُ لها عندي، ثم قالت : وتتزوّجون أكثر من امرأة ؟ قلت لها جائز ذلك في ديننا. ثم قالت : هل عندك أولاد ؟ قلت لها عندي ! وقلت في نفسي حين علمتْ ذلك تنقص المحبة، فلم تنقص شيئاً، ورأيتها يوماً زيّنتْ نفسها وكانت ترعاني (تنتظرني) وليس لي خبر بما أضمرت، وسرتُ إلى الجنان (البستان) ، والبساتين بتلك البلاد ما لها حيطان (جدران)، وسمعتها تنادي، فجئت من داخل البستان، وفهمتُ من حالها ما لا يخفى...الخ»[13].

وبعدما رأى الفُقّايْ أن رسائل السلطان زيدان لم تُجْد نفعاً قرّر الرجوع إلى المغرب ، ولكنه خشي إن عاد إليه من فرنسا وعلى ظهر سفينة فرنسية أن يقع له ما وقع لإخوانه الأندلسيين المطرودين من إسبانيا ، هؤلاء الذين سافر للدفا ع عنهم، ففضل أن يعود إليه عن طريق هولاندة (فلنضس) التي لم تكن أصلاً في برنامج سفره لأن أهلها لا يضرون المسلمين ، بل يحسنون إليهم ، فذهب إلى أمستردام ، ولما دخلها أخذه العجب العجاب مما رأى من حسنها ونظافتها وسعة عمرانها ، وقال في وصفها ما نصه : «ولما أن بلغنا إلى مدينة مسترضام رأيتُ العجب من حسن بنيانها ونقائها وكثرة مخلوقاتها ، كاد أن تكون في العمارة مثل بريش (باريس) بفرنجة ، ولم تكن في الدنيا مدينة بكثرة السفن مثلها ، قيل إن في جميع سفنها صغاراً وكباراً ستة آلاف سفينة ، وأما الديار ، كل واحدة مرسومة ومزوقة من أعلاها إلى أسفلها بالألوان العجيبة، ولا تشبه واحدة أخرى في صنع رقمها ، والأزقة كلها بالأحجار المنبثة ، والتقيتُ بمن رأى بلاد المشرق وبلاد الصقالبة وروما وغيرها من بلاد الدنيا ، فقال لي انه ما رأى مثلها في الزين والملاحة»[14].

وفي لاهاي اجتمع الفُقَّايْ بولاتها وأعيانها الذين طلبوا منه أن يحدثهم بتفصيل عن محنة الطرد التي تعرض لها مسلمو الأندلس ففعل ، كما اجتمع فيها بالمستعرب گوليوس GOLIUS والمستعرب إيربنيوس ERPENIUS أستاذ كرسي اللغة العربية بجامعة ليدن ، وتؤكد بعض الدراسات الأوروبية المعاصرة أن الفُقَّايْ أقام بدار هذا المستعرب الأخير ، وهي الدار التي أنشأ فيها صاحبها مطبعة عربية تطورت فيما بعد وصارت مطبعة بريل الشهيرة حتى الآن ، وقد رأى الفُقَّايْ المطبعة في هولاندة وفرنسا، رأي العين، وهو يسميها (القالب)، وقال عن إحداها أنه لا يجوز لأحد من (المعلمين) أصحابها أن يطبع بها كتاباً، إلاّ إذا أذن أصحاب الديوان لمؤلفه بطبعه.

وامتازت إقامة الفُقَّايْ بفرنسا وهولاندة بمناظرات كثيرة جرتْ بينه وبين عدد من الولاة والوجهاء والعلماء والمفكرين ورجال دين من يهود ونصارى، كانت تدور على الأكثر حول معتقداتهم الفاسدة أو فهمهم المعْوجّ للديانة الإسلامية وتأويلهم الخاطىء لآي القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فكان يُفحمهم بمعرفته الكبيرة بما في التوراة والإنجيل، تلك المعرفة التي اكتسبها وهو صغير بإسبانيا، ووسَّعها وهو مسافر متجول بفرنسا وهولاندة ، ولاطلاعه أيضاً على تاريخ الديانات وسِيَرِ كبار الأحبار والرُّهبان ، ولا سيما الباباوات الذين سرد في

كتبه أسماء من زاد منهم في النصرانيَة ونقص أو ابتدع فيها ما لم يكن في عهدها الأول، ولم يكن الحوار بينه وبينهم بالأمر السهل، لأنهم كانوا يتحاورون بأكثر من لغة ، هو كان يحاورهم بالإسبانية التي يفهمونها ولا يتكلمونها ، وهم كانوا يجادلونه بالفرنسية التي يفهمها ولا يتكلمها، وبالاطلاع على ما كَتب عن هذه المناظرات يتبيّن المرء ما كان له من نفَس طويل في الحجاج والجدال ، كما يتبيّن مدى رحابة الصدور وسَعَة الأفكار التي كان المتحاورون يتحلون بها ، فقد كان للرجل غيرة شديدة على الدين الإسلامي، ومنطق قويّ وهو يدرأ الشبهات والأباطيل التي يروّجها عنه أعداؤه إما بنية سيّئة وإما لسوء فهم، ولا أظن أنه كان من الممكن أن تجري في ذلك الوقت مناظرات مشابهة في غير ذينك البلدين دون أن تُسفك دماء وتزهق أرواح.

وأستحسن أن أُورد هنا نماذج متفرقة من مناظراته ومحاجّاته مع أعيان من النصارى واليهود ، قسّيسين وأحباراً وغيرهم :

ذكر أنه لمّا حلّ بروان بعد وصوله إلى فرنسا لقي بها تاجراً فرنسياً اسمه فرط عرفه من قبل في مراكش ، وكان يجيد الكلام بالعربية لطول إقامته ببلاد المسلمين ، ولما اجتمع به بدأ التاجر يستعظم دينه ويستنقص دين المسلمين ، وزعم للفُقّاي أن الدين الإسلامي يُبيح الزّنا والسرقة ، اعتماداً على فهم سيّيء لحديث ذُكر فيه أن النبي (ص) سُئل عن المومن هل يزني ؟ فأجاب بنعم ، وسئل عنه هل يسرق ؟ فأجاب بنعم، وسئل عنه هل يكذب ؟ فأجاب بلا[15]، فتصدى له الفُقّايْ مبيّناً له معنى الحديث على حقيقته، قائلاً إن الذي لا يكذب لا يزني ولا يسرق، كيف يقال إن الزنا والسرقة مباحان في الإسلام وفيه أن من سرق ربع دينار تقطع يده شرعاً، وأن من زنا يرجم حتى يموت إن كان محصناً، وعلى ذلك لجَّ التاجر في عُتُوّه وتمجيد دينه، قائلاً إن عيسى عليه السلام كان ابناً لله وابناً للإنسان وأنه مات ليخلص الذنب الأول عن آدم، وهنا ردّ عليه الفُقّايْ بأبيات منسوبة للقاضي عياض أثبتُها على علاّتها كما وردت في كتاب «ناصر الدين» وهي :

عجباً للنصارى في نبيّهم	**وإلى أيّ والد نسبوه**
أسلموه إلى اليهود وقالوا	**أنهم بعد صلبه قتلوه**
فإذا كان ما يقولون حقّاً	**فاسألوهم أين كان أبوه**
فإذا كان راضياً لأذاهم	**فاشكروهم لأجل ما عذبوه**
وإذا كان ساخطاً لأذاهم	**فاعبدوهم لأنهم غلبوه**

قال : فبهت التاجر ولم يعرف ما يقوله

ومن ذلك ما ذكره من أنه التقى في باريس برجل من علماء فرنسا اسمه أوبرت كان يقيم بمراكش ويعمل بها جاسوساً لملك فرنسا وبها تعلم العربية، وربما كان حتى ذلك الوقت من رجال الاستخبارات، فعرض عليه القيام بكل الخدمات التي يطلبها منه مقابل مساعدته على فهم كتب عربية يملكها، فطلب منه الفُقّايْ أن يحضرها له، فأحضرها وكان من بينها القرآن الكريم وقانون ابن سينا، وكتاب إقليدس في الهندسة، والأجرومية والكافية، فسأله الفُقّايْ كيف حصل عليها وأين؟

فأجابه أوبرت إنه كان يقيم بمراكش وبها تعلم العربية ، وأن جلوسه بها كان عن أمر سلطان فرنجه ليخبره بحروف الرّمز بكل ما يصل إلى علمه عن تحركات السلطان وما يقع في ديوانه ، فكانت المذاكرة بينهما تكون هادئة إذا كان الحديث يتعلق بالعلم، وتنقلب صاخبة ساخنة إذا تعلق بالدين ، ولاحظ الفُقّايْ يوما وهو ينظر في المصحف الذي أحضره أوبرت جملة كتبت في الهامش أمام قوله تعالى ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَاتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾. والجملة هي (من هنا أخذ المسلمون إباحة اللّواط)، فتصدى الفُقّايْ لأوبرت قائلاً من قال لك إن اللواط مباح عندنا ؟ فأجاب أوبرت : ذلك مفهوم من ظاهر الآية، فردّ عليه الفُقّايْ قائلاً :

إن اللواط عندنا أشد ذنباً من الزنا، لأنه إذا زنى محصن يرجم إلى أن يموت، وإذا كان غير محصن يجلد مئة جلدة، أما إذا فعل فعْلَ قوم لوط فإنه يموت رجماً محصناً كان أو غير محصن، ثم سأله : كيف تفسرَ القرآن وأنت لا تعرف العربية ولا النحو، وتجهل العلوم التي يحتاج إليها المفسّر ؟ وطلب منه أن يمحو الجملة التي كتبها بالهامش فأبى، واتفق أن ذهبا معاً إلى مكتبة فيها كتب مصفوفة على ألواح وكراسي، ومنها تفسير للقرآن ، فوقعت عينه صدفة على الآية المتقدمة ، ومن جملة ما كتب في تفسيرها هذه الأبيات التي أنقلها من كتابه «ناصر الدين» على علاتها، وهي :

حبذا من وُهب النساء الصالحات — هنّ للنسل وهن للدين ثبات
يهب الله لمن يشاء — النساء الخيّرات
.... — وإنما الأرحام لنا محترثات
فعلينا الزّرعُ فيها — وعلى الله النبات !

فأخذ ورقة ونسخ ما ورد عن الآية من تفسير وأوبرت ينظر ، فقال له ما هذا الذي كتبت ؟ فأجاب : شيء من تفسير الآية التي كتبت عليها في الطرة أن النكاح في الدبر مباح في الإسلام، ثم فسّر له بالأعجمية معنى الشعر، ثم قال له (نساؤكم حرث لكم) قال نعم، فسأله الفُقّايْ : هل رأيت أو سمعت أن أحداً يحرث في حجر ؟ قال لا ، فقال الفُقّايْ : إن أحدا لا يحرث إلاّ في موضع النبات أو الزرع، والنساء من حرث الرجال في محل النبات، فحينئذ اقتنع أوبرت، ومحا الجملة التي كتبها بهامش المصحف أمام الآية الكريمة. وكان الفُقّايْ عدى ذلك شديد الانتباه لما للأوروبيين من تقاليد وعادات وتصرفات مجتمعية ، فهو يصف طريقتهم في الأكل والشرب والفرش والضيافة والسمر والسفر، ولا سيما مشاركة النساء للرجال في المجالسة والمحادثة وإيناس الضيف وإمتاعه بالمذاكرة معه وتقريب ما لذّ وطاب من الطعام والشراب إليه إذا اجتمعوا على مائدة، وهو يعجب كثيراً من ظهور النساء متبرجات بزينتهن أمام الغرباء بمحضر بعولتهن ، ويحس المرءُ من وصفه أنه يكون في المقيم المقعد حيال بعض المظاهر وفي بعض المواقف ، وأنه لا يتغلب على نوازعه البشرية إلاّ باللّجوء إلى الله يستغفره ويستعيذ به من وسوسة الشيطان ونَزْغِه.

وبعد إقامة لم تطل في هولاندة عاد أحمد الفُقّايْ إلى المغرب ، ولا شك في أن ذلك كان عام 1022هـ الذي يوافق سنة 1613 ميلادية، لأننا نجده يذكر في رسالة كتبها في 25 ربيع الثاني من ذلك العام (10 يونيو) إلى صديقه أُوبرت الذي تعرف به في باريس والذي كان يقيم في مراكش ويعمل بها جاسوساً لملك فرنسا – وهو يسميه في رسالته منشر هبرت وينعتُه بالطبيب – أنه ينتظر سفينة تمشي للمغرب يمشون فيها بعون الله وبركة الصالحين !

ولا نعرف من أخبار الفُقّايْ بعد ذلك شيئاً كثيراً سوى عمله مع السلطان زيدان السعدي المتوفى عام 1037هـ وولده عبد الملك المقتول عام 1040 ثم أخيه الوليد بن زيدان المقتول أيضاً عام 1045 وسوى بعض الخدمات التي أنجزها للسلاطين المذكورين كتعريبه الكتب والرسائل والمراسيم الأجنبية ، كل ذلك وهو لا يكف عن مكاتبة أصدقائه من العلماء الأوروبيين الذين تعرف بهم في فرنسا وهولاندة ، والتعاون معهم في مسائل علمية ، كما نرى ذلك في رسالة كتبها من مراكش في 10 جمادى الأولى عام 1033 هـ إلى صديقه المستعرب الهولاندي گوليوسْ يذكر فيها أنه أرسل إليه كتاب «مروج الذهب» وكتاب «المستعيني»، كما يشير فيها إلى أَثارةٍ مكتوبة بحروف محفوظة عنده تتعلق بمَيْل الشمس، ويقترح

عليه أن يُعربها أو يكتبها بلسان الإشبانيول ويبعث بها إليه لإدخال السرور عليه.

وقد كانت الأحوال السيئة والظروف العصيبة التي صار المغرب وأهله يعيشون فيها بسبب سوء سياسة أبناء السلطان أحمد المنصور وقُبح تفكيرهم وتدبيرهم باعثاً قوياً للفُقّاي على التفكير في الهجرة منه والابتعاد عما كان يعمه من الفتن والفوضى والأوبئة والتفكك والانقسام ، حتى صَحَّ منه العزم عام 1045 على الرحيل عنه إلى غيره من بلاد الله إثر قتل السلطان الوليد بن زيدان ، فذهب أولا إلى قصبة سلا ورباطها بعدما أقام بمراكش نحو أربعين سنة ، ومن واديهما (أبي رقراق) ركب البحر متوجها إلى المشرق بنية الحج ، فأدى الفريضة ببيت الله الحرام، ثم زار الروضة النبوية الشريفة بالمدينة المنورة ، وبعد ذلك غادر أرض الحجاز مغرِّباً عام 1046 ماراً في طريقة بمصر حيث اجتمع بفقيهها الشيخ علي الأجهوري[16] وقص عليه أخبار رحلته إلى أوروبا ومناظراته بها مع فقهاء الدين من قسيسين وربّيين ، فأعجب الأجهوري بما حكى له ، واقترح عليه تأليف كتاب يضمّنه تلك الأخبار والمناظرات، فاستجاب له وألف كتابه «رحلة الشهاب، إلى لقاء الأحباب»، ثم اختصره له قبل خروجه من مصر في كتاب صغير سماه «ناصر الدين، على القوم الكافرين»، وإثر ذلك سافر إلى تونس فأُعجب بواليها التركي أسطا مراد[17] واستحسن سيرته وسياسته ونوه بمنجزاته الدفاعية، وتعرف فيها بمهاجر موريسكي اسمه إبراهيم بن غانم الرِّباش الذي أطلعه على كتاب ألفه باللغة الإسبانية في فن المدفعية وطلب منه أن يعربه ليعم النفع به المسلمين، فلبى الفقاي طلبه ونقله إلى اللغة العربية وسماه «العزّ والرّفعة والمنافع، للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع»، وكان ذلك عام 1048هـ ولا نعرف بعد ذلك عنه شيئاً سوى اجتماعه مع ابنه بتونس سنة 1050 وبقائه مقيماً بها إلى يوم 20 رجب من العام التالي ، ثم تنقطع عنا أخباره، ويغلب على الظن أن شمعة حياته انطفأت بها بعد سنين قليلة ، لأنه كان يبلغ من العمر في ذلك العام الرابعة والسبعين.

وقد ألف أحمد الفقاي أو عرَّب عدداً من الكتب في فنون مختلفة ضاع أكثرها وهو بقَيْد الحياة ، فقد أشار في كتابه «ناصر الدين» إلى كتب سرقت له بمراكش مما كتَب بيده في التوحيد وغيره بقرب مجيئه إليها من بلاد الكفار[18]، ثم أشار إلى الكتب التي كتب بيده أيضاً وضاعت مع الحِمْل الذي سُرق له عام 1045 وهو في طريقه إلى الحج[19].

الحمد لله والصلاة والسلام على رسله

اما بعد حمد الله الواحد الاحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن
له كفوا احد فاني قبلت كتابك وفرحت بما رايت من ضبط
خطك وفهمت معناه ومن ماله اما ما ذكرت من كتاب مترجم
الذهب انه لم يبلغ اليك وانه نهبه العرب من ايدي حامله فذلك
عادتهم في هذه البلاد وفي هذا الزمان الصعب وفرحت اذ جاء
على يدك الكتاب المستعيني في صناعة الطب مازلت نكتب لك
في شانه شيئا الا في غالب ظني ان النسخة التي بيد صاحبنا
الطبيب تحرر ان لها مكتوبة نحو الاربع مائة سنة وهو
هذا الكتاب المذكور عجيب مقبول عند المسلمين وكنت
ذكرت لي ان عندك حروفا مصبوغة لمثل الشمس لو امكن ان
ان تبرز بها عربية او في لسان الاشبانيول وتبعث لي نعم بذلك
والسلام وكتب في مراكش الحمراء حرسه في العاشر من شهر جمادى
الاول من عام ثلث وثلاثين والف سنة

خديم المقام العلي

احمد بن قاسم

لطف الله به

صورة رسالة كتبها أحمد الفقاي بخط يده للمستعرب الهولاندي كُولْيوس يوم 10 جمادى الأولى عام 1033 هـ

الحمد لله وحده والسلام على عباده الذين اصطفى واتبع طريق المصطفى

أما بعد من عند صاحبك الذي عرفته في باريش من أجل صاحبنا

الطبيب المعظم منشر هبرت صوحبتكم والله المسلم الذي

حماه من تراعيش [illegible] بسبب شأن الخصومات ما أردتم أن تعلموا

ما كان من أمرنا منذ خرجنا عنكم مختصرا قاسينا مشيا من باريش

إلى مدينة [illegible] وبعد أيام [illegible] والعام [illegible] الشرع وفتح

الله سبحانه أن أصبنا شيئا مما كان [illegible] على وجه النهب والتعدية

إلى الأندلس الذين وقفوا على [illegible] فاستنفعنا من شيء قدر

ما كفانا مما نحتاج إليه من النفقة والناس ومحتاج للطريق

حتى نبلغ إن شاء الله بلادنا وجئنا إلى باريش وسألت عليكم وقالوا

إنكم [illegible] ثم جئت إلى مدينة [illegible] وركبت البحر وجئت

لهذه المدينة الشريفة المعروفة [illegible] وبقيت هنا أصحاب التجار

نعرفهم من مراكش وكذلك [illegible] وأيضا ألفيت رجلين وذكرا

لي أنكم [illegible] مشتغلا بالقراءة العربية وفرحت والذي نعلمك به

أن الاشتغال بذلك العلم العربي له بركة مشهورة ولا تر من حرم تلك

الحروف [illegible] وإن [illegible] فنحن بخير ولله الحمد وله المنة

ننتظر [illegible] لبلادنا إن شاء الله ونمشو جميعا بعونه وبركة الصالحين

صورةُ رسالة كتبها أحمدُ الفقّاي بخط يده للمستعرب الهولاندي إيرْبنيوس يومَ 25 ربيع الثاني 1022 هـ (10 يونيو 1613 م) أصلُها محفوظ بمكتبة ليدن (هولاندة)

وأُورد فيما يلي أسماء ما هو معروف من هذه المؤلفات وما هو غير معروف:

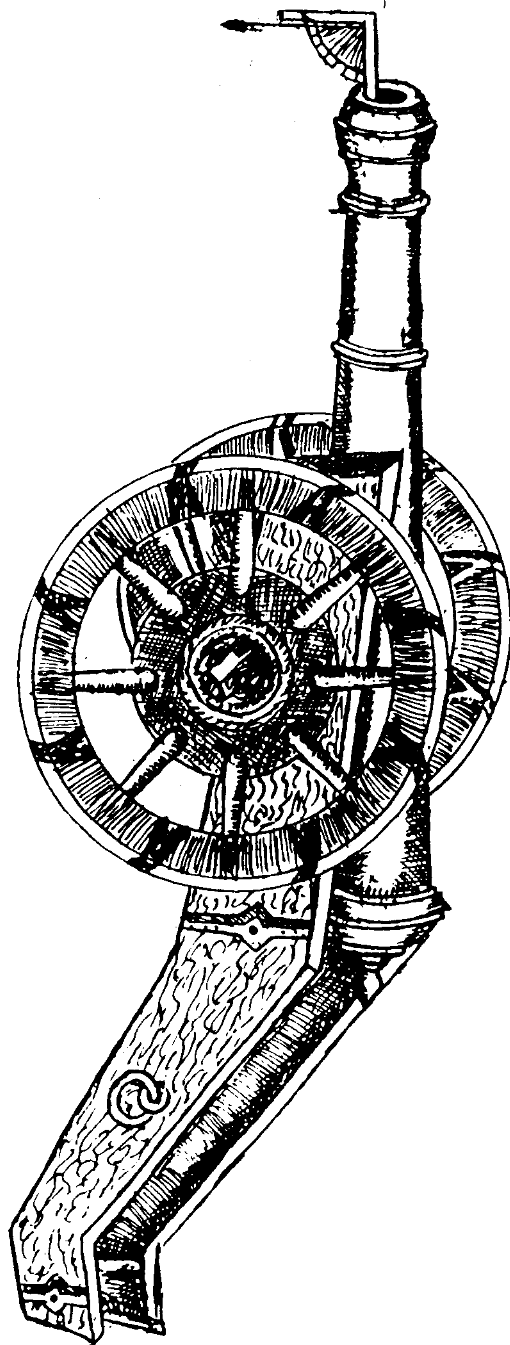
1 - «رحلة الشهاب ، إلى لقاء الأحباب»، وهي حسبما ذكر في مختصرها (ناصر الدين) شبه معلمة وصف فيها الأندلس جغرافياً وتاريخياً، وذكر نكبة المسلمين بها وما تعرضوا له من اضطهاد إلى صدور قرار الطرد، كما ذكر ما رأى في أسفاره ورحلاته المشرقية والمغربية والجوفية[20] ومناظراته مع أحبار اليهود ورهبان النصارى بفرنجة (فرنسا) وبلاد فلنضس (هولاندة) مع إثبات نصوص أدبية كرسائل محمد ابن الخطيب السلّماني.

وقد ذكر أنه قرأ هذه الرحلة على الشيخ علي الأجهوري بمصر وأعطاه نسخة منها لما عزم على الرجوع إلى المغرب واختصرها له في كتاب سماه (ناصر الدين) تلبية لطلبه.

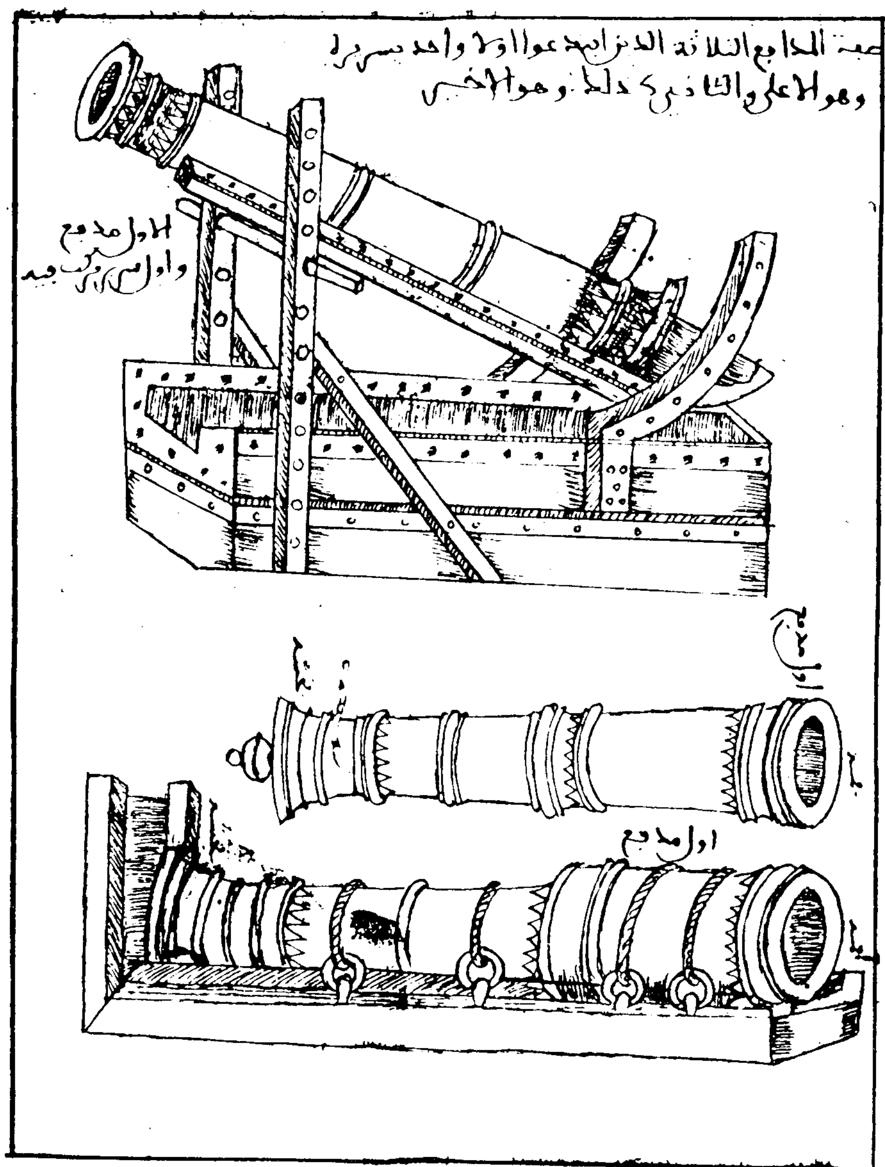
وهذه الرحلة غير معروفة الآن ، ولكن من غير الميؤوس أن يكون لنسختها التي أعطيت للشيخ الأجهوري وجود في إحدى دور الكتب العامة أو الخاصة بمصر ، كما يؤَمَّل أن يُعثر على نسخة منها في المغرب لأنها من الكتب التي اعتمد عليها محمد الصغير اليفرني في كتابيه «نزهة الحادي» و«صفوة من انتشر»، ومحمد ابن العياشي المكناسي في كتابه «زهرة البستان»، وقد ذكر صديقنا المرحوم الفقيه السيد عبد السلام ابن سودة في كتابه «دليل مؤرخ المغرب الأقصى» أن زميلنا المرحوم الأستاذ محمد الفاسي أكد له أن طرفاً منها يوجد عند بعض أصدقائه[21].

ومما لا شك فيه أن ظهور هذه الرحلة بعد اختفاء سيُمدنا بمعلومات قيمة وجديدة عن الأندلس في آخر عهدها بالإسلام ، ومعلومات مفصلة أخرى عن المحنة التي تعرض لها المسلمون بعد سقوط غرناطة، ومعلومات عن حياة المؤلف نفسه في الأندلس قبل الهجرة وفي المغرب بعدها.

2 - «ناصر الدين، على القوم الكافرين»، وهو مختَصَر الرحلة المتقدمة، والمرجع الأساس لمعرفة حياة مؤلفها، ألفه بالقاهرة استجابة لطلب الشيخ علي الأجهوري، وفرغ من تأليفه يوم الجمعة 21 ربيع الثاني عام 1047هـ، وزاد فيه لما أعاد نَسْخَة بتونس، توجد منه نسخة محفوظة بدار الكتب المصرية بالقاهرة تحت نمرة 1634 ت مكتوبة بخط المؤلف، فرغ من نسخها بتونس يوم 20 رجب عام



مثال من الصور التوضيحية التي زين بها كتاب (العز والرفعة والمنافع)



مثالٌ آخر من الصور التوضيحية التي زُيِّن بها كتاب (العزُّ والرفعةُ والمنافع) .

1051 وهذه النسخة هي التي حقّقها الأستاذ أحمد رزوق وطبعتها كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء سنة 1987 م (1407هـ).

3 - «العز والرفعة والمنافع ، للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع»، كتاب بدأ تأليفه باللغة الإسبانية إبراهيم بن غانم الأندلسي الملقب بالرباش بصحن حلق الوادي بتونس عام 1040 وأكمله يوم 22 ربيع الأول عام 1042 وموضوعه المدفعية وكيفية استعمالها والقتال بها، ولما حل أحمد الفُقّايْ بتونس وهو راجع إلى المغرب من الحج أطلعه مؤلفه إبراهيم الرِّباش عليه وطلب منه أن ينقله إلى اللغة العربية ليعم النفع به المسلمين ففعل، وأتم تعريبه يوم السبت 10 ربيع الثاني عام 1048 (21 أغسطس 1638م).

توجد منه نسخ عديدة بالمغرب والجزائر ومصر والنمسا وإيرلندة، أما بالمغرب فتُعرف منه ثلاث نسخ، أولاها محفوظة بالخزانة الحسنية الملكية تحت نمرة 2646، والثانية محفوظة بالخزانة العامة بالرباط ضمن مجموع نمرته 1342 د مبتورة الأخير، والثالثة محفوظة بنفس الخزانة تحت نمرة 87 د، وهي أحسن النسخ وأصحُّها وأكملُها، مكتوبة في 117 ورقة بخط أندلسي جميل واضح ملون ومصحح، ومزينة بصورة متقنة للمدافع وكيفية تحريكها والقتال بها، ومذيَّلة بخاتمة من وضع المُعرِّب أحمد الفُقّايْ تحدث فيها باختصار عن حياته بالأندلس والمغرب ورحلته إلى الشرق ووصوله إلى تونس في طريق رجوعه إلى المغرب.

وكانت هذه النسخة من الكتب المحبَّسة على خزانة جامع الزيتونة بتونس قبل أن تنقل إلى المغرب ، وعليها ثلاث شهادات أو تقريظات تنوه بها وتنبه إلى قيمتها وأهميتها، اثنتان نثريتان من إنشاء العلامة أحمد الشريف مفتي الحنفية وإنشاء محمد بن عثمان الحشّاشي الشريف متَفَقِّد خزائن الكتب بالجامع الأعظم والمكلف بتراتيبها، والثالثة شعرية دالية القافية منَ نَظْم عبد الرحمان بن مسعود الجبالي.

4 - الرسالة الزكوطية، رسالة في علم التعديل، وضعها عام 877 هـ على طول مدينة سَلَمَنْقَة الأندلسية SALAMANCA يهودي من أبنائها اسمه إبراهيم زكوط ترجمها الفُقّايْ من اللغة اللاّتينية إلى اللغة العربية بأمر السلطان زيدان السعدي بمراكش بمساعدة راهب من الأسرى ، تشتمل هذه الرسالة على 248 جدولاً لتعديل الكواكب موزعة على 248 صفحة يمكن بواسطتها استخراج الحركات الطولية والعرضية للكواكب المرصودة ، توجد منها نسخة مخطوطة

بالخزانة الحسنية بالرباط محفوظة ضمن مجموع نمرته 1433 وأخرى بنفس الخزانة نمرتها 8184، وقد شاع استعمال هذا الزيج الزكوطي بالمغرب بعد أن كان زيج أحمد ابن البناء الأزدي المراكشي منفرداً بالرواج ، ووضع العلماء المغاربة مؤلفات لتكميله وتوضيحه، كالرسالة التي ألفها عبد الله أصناك المراكشي على جداوله، والتعاليق التي وضعها عليه عبد الله بن عبد القادر أبي الشيخ اللخمي القصري ، والكتاب المسمى (تحفة المحتاج ، في علم التعديل والأزياج) ضمّنه مُؤلِّفُه المجهول تكميلات وتوضيحات للرسالة الزكوطية، توجد منه نسخة في أول المجموع المشار إليه آنفاً المحفوظ بالخزانة الحسنية.

وله غير ما ذكر من المؤلفات كتاب لعل موضوعه القرآن الكريم، وكتاب في الردّ على اليهود والنصارى من كتبهم، وكتب أخرى قام بتعريبها أو تعجيمها، منها كتاب جغرافي كبير ألفه مؤلف اسمه قبطان (بلسان الفرنج) عن جبل من أعظم جبال الدنيا وأمره السلطان زيدان السعدي أن يترجمه له، وكتاب من كتب المسلمين نسي اسم مؤلفه طلب منه واحد من فقهاء الأندلس أن يترجمه بالعجمية من العربي ففعل ذلك بمدينة سلا، ويذكر أن في هذا الكتاب أخباراً كثيرة عن غش اليهود وحكايات مما وقع معهم للمسلمين.

وبالجملة فإن أحمد الفُقّايْ جدير بدراسة معمقة لشخصه وأفكاره ومراحل حياته، وتحليل دقيق للموجود من مؤلفاته والبحث عن المفقود منها، لا سيما (رحلة الشهاب) التي يغلب على الظن أن تكون نسخة أو نسخ منها موجودة بخزائن مصر وتونس والمغرب.

لم أقف على تاريخ وفاته ، وكان حيّاً بتونس يوم 20 رجب عام 1051 هـ.

الهوامش

(1) **ناصر الدين** ص 104.

(2) **شنتمرية** ، بلدة صغيرة تبعد 19 كلم عن مدينة قادس شمالاً و 13 كلم عن مدينة شريش جنوباً ، تدعى بالإسبانية PUERTO DE SANTA MARIA لها ميناء صغير يطل على فرضة قادس BAHIA DE CADIZ وصفها الحميري في «الروض المعطار»، ص 349 فقال : «وشَنْتَ مرية على معظم البحر الأعظم، سورها يصعد ماء البحر فيه إذا كان فيه المدّ » وهي مدينة متوسطة القدر حسنة الترتيب، بها مسجد جامع ومنبر وجماعة، وبها المراكب واردة وصادرة ، وهي كثيرة الأعناب والتين ، وبينها وبين شلب ثمانية وعشرون ميلا .

وإليها ينسب الأستاذ يوسف بن سليمان الشنتمري الأعلم ذو التصانيف المشهورة.
وهي مدينة أولية ، وبها دار صناعة الأساطيل، وبإزائها جزائر في البحر تُنبت شجر الصنوبر.

(3) «العز والرفعة والمنافع» ، ص: 254 (نسخة الخزانة العامة بالرباط) .

(4) «ناصر الدين...» ص43 وينظر عن يوم الديوان «نزهة الحادي» ص 151.

(5) «ناصر الدين...» ص 43 .

(6) «ناصر الدين...» ص 66.

(7) لما ذكر محمد بن أحمد العبدي الكانوني في كتابه «جواهر الكمال» ص 93، أسباب إهمال المغاربة حياة هذا الرجل جعل من بينها خُلو الفُقّايْ من المعارف الراقية وأن غاية ما يكون معه معلومات بسيطة ، فإن كان يعني بالمعارف الراقية علم الفقه فإن أحداً لم يزعم أن الفقاي كان متضلعاً فيه ، ولكنه كان متفوقاً على الفقهاء بمعارف أخرى راقية كان فقهاء العصر خالين منها ، كما يظهر ذلك من مناظراته ومجادلاته لمفكرين ورجال دين غربيين ، وعلى ذلك عاب الكانوني على رجال المغرب هذا الإهمال قائلاً :كان الواجب يقضي بمعرفة حقه والإشادة بمنزلته وتلقي ما عنده من المعلومات عن الجزيرة الأندلسية بكل إجلال واحترام الخ .

(8) تولّى السلطان مراد خان الرابع الخلافة العثمانية عام 1032هـ (1623م) ، أما واليه على تونس الباي مراد – ويعرف أيضاً بأسطا مراد– فتولى حكم تونس من عام 1022هـ (1613م) إلى عام 1041هـ (1631م) ، وهو جد الأسرة المرادية ، انظر كتاب «العز والرفعة والمنافع...» ص 246 و ص 247.

(9) «ناصر الدين...» ص 17.

(10) «ناصر الدين...» ص 17 و 20.

(11) لوهافر Le Havre : مدينة تقع في شمال فرنسا على مصب نهر السين في بحر المانش، أسست سنة 1517م ، وخرب جزء كبير منها خلال الحرب العالمية الثانية ، وهي اليوم أهم الموانىء الفرنسية على المحيط الأطلسي .

(12) «ناصر الدين...» ص 102.

(13) «ناصر الدين...» ص 69.

(14) «ناصر الدين...» ص 105.

(15) روي الحديث من طرق متعددة وبألفاظ متغايرة ، منها حديث مرويّ عن عبد الرحمان بن جراد أنه سأل النبي (ص) : هل يزني المومن؟ قال قد يكون ذلك ، قال هل يسرق المومن ؟ قال قد يكون ذلك ، قال هل يكذب المومن ؟ قال لا ، ثم أتبعها النبي (ص) : إنما يفتري الكذب الذين لا يومنون بآيات الله .

(16) علي بن محمد الأجهوري من شيوخ المالكية بمصر في القرن الحادي عشر، ولد بالقاهرة عام 967هـ وتوفي بها عام 1066 هـ له مؤلفات كثيرة في الحديث والفقه والتوحيد .

(17) سبقت الإشارة إليه في الصفحة 14 .

(18) «ناصر الدين...» ص 132 .

(19) «ناصر الدين...» ص 132 .

(20) الجوف في الاصطلاح المغربي القديم هو الشمال، وعكسه القبلة (الجنوب).

(21) «دليل مؤرخ المغرب الأقصى» ص 343 ع 475 .

مراجع

- «الأعلام» للزركلي 1 : 198.
- «الإعلام ، بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام» 2 : 273 ع 218 .
- «الإسطوغرافيا والأزمة» ص 75 .
- «إيضاح المكنون» 1 : 550 .
- البحث العلمي «مجلة» 13 : 28 .
- «جواهر الكمال» ، في تراجم الرجال ص 87 .
- (دعوة الحق) «مجلة» س 2 ع 3 ص 22 وس 10 ع 2 ص 77 وع 3 ص 77.
- د«ليل مؤرخ المغرب الأقصى» ص 343 ع 1475 .
- «زهر البستان» ، في نسب أخوال سيدنا ومولانا زيدان (مخطوط مصور) ص 140.
- (اللسان العربي) «مجلة» ع 1 ص 55 .
- مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، ع 11 : ص 335 .
- «المصادر العربية لتاريخ المغرب» ص 152 و 155 .
- «معلمة المغرب» 2 : 566 .
- «الموسوعة» 3 : 124 و 161.
- «نزهة الحادي» ص 106 من طبعة فاس ، وص 118 من طبعة باريس .
- «صفوة من انتشر» ص 224 .
- «فهرس المخطوطات العربية في مكتبة تشستربيتي» (دُبلن -إيرلاندة) 2 : 858 ع 4568 و ص 631 ع 4107 .
- «سفراء مغاربة في أوروبا» ص 11 .